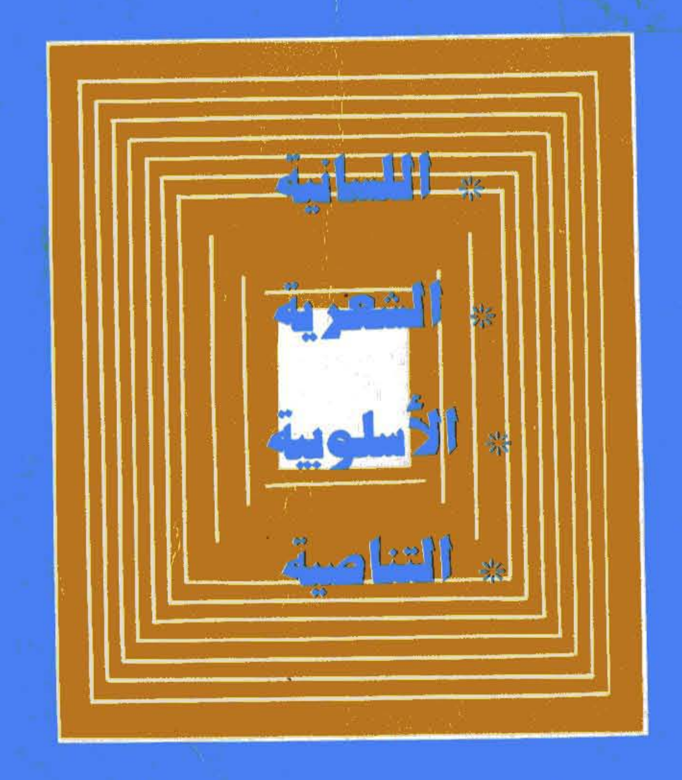
مفهومات في بنية النص



ترجمة الدكتور
وائل بركات

الدراسات الواردة في هذا الكتاب هي بالأساس منتقاة من كتاب بالفرنسية يحمل عنوان «مقدمة للدراسات الأدبية – مناهج النص» لمجموعة من المؤلفين – باستثناء الموضوع الأول «اللسانية» وهو دراسة لجورج مونان أضيفت لارتباطها الوثيق بموضوعات الكتاب الأخرى من جهة وللعلاقة الوثيقة بين اللسانية والنقد الأدبي الحديث من جهة ثانية. إن ما يربط بينها جميعاً هو انتماؤها إلى رؤية للنص تقوم على النظر إليه كبنية لغوية قائمة بذاتها ومتصلة – بشكل أو بآخر – بما سبقها أو عاصرها.

من المقدمة

دار معد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية – دمشق – ☒ ١٠٨٧٧ – ☎: ٦٣٣٤٠١٠

مفهومات في بنية النص

ترجمة الدكتور: وائل بركات

الطبعة الأولى ١٩٩٦/١٠٠٠ نسخة

الإخراج الفني : بنان قسطنطين

دار معد للطباعة والنشر والتوزيع

سورية – دمشق – ✉ ١٠٨٧٧ – ☎ ٦٣٣٤٠١٠

اللسانية

G. MOUNIN

١- مقدمة:

لاشك أن اللسانية (اللسانيات) Linguistique لم تشهد منذ حوالي عام ١٩٥٠ توسعاً علمياً حقيقياً. كانت سابقاً حقلاً رفيع المستوى بالتأكيد، لكن لاشيء يُميِّز الآن ضمن هذا الكمّ الكبير من العلوم الإنسانية أو الاجتماعية.

لم تؤثر اللسانية بالثقافة مثلما فعلت في علوم حديثة العهد أو أكثر حداثة مثل علم النفس وعلم الاجتماع أو التاريخ حيث حاولت أن تجد فيها نماذج توضيحية للوقائع التي درستها. على المستوى الجامعي، حتى فيما وراء الأطلسي، لم يكن لها سوى حضور محدود في الجامعات - وهذا أمر ذو قياس دلالي - أدنى مما هو بالنسبة إلى علم السلالات Ethnologie مثلاً.

منذ عام ١٩٤٠ في أمريكا، و١٩٥٠ في غيرها، بدأ اللسانيون يتزايدون بالآلاف، واحتلوا مقاعد في معظم الجامعات تقريباً. وهذه ظاهرة تستحق الدراسة بتفصيل. لكن يبدو جيداً أننا نشهد التقاءً وتفاعلاً بين نوعين من الأسباب.

فمن جانب أول، وبفضل «الآباء المؤسسّين» مثل ويتني Whitney وسوسور Saussure وتروبتسكوي Troubetzkoy وسابير Sapir وبلومفيلد Bloomfield، توصلت اللسانية، وربما للمرة الأولى في العلوم الإنسانية، إلى إعطاء نفسها صيغة علمية منسجمة تقريباً من وجهة نظر معرفية، إذ وجدت مميزات صالحة لتعريف مادتها (ماهي اللغة بالقياس إلى ماليس لغة؟) ولتحديد مجالها.

توضح اللسانية مفهومات (مثل التزامنية Synchronie والتطورية [أو التعاقبية] Diachronie، الرمز Signe، المنظومة Systeme، بنية Structure، وظيفة Foncution وفونيم Phoneme) تترابط فيما بينها وفق مبادئ صارمة، وتقدّم لها مناهج فعّالة في إعطاء وصف منظّم وصحيح وكامل لاستعمال لغة ما بدل الملاحظات المتناثرة المتجاورة (دون رابط بينها) والشروحات التقديرية التي سادت الفترات السابقة والتي نطلق عليها اليوم اللسانية المجزأة.

بظرف مدهش، أفادت علوم إنسانية أخرى، وفي مقدمتها علم السلالة وعلم الإنسان، من هذا التطور المفاجئ، واقتبست من اللسانية أداتها المفهوماتية والمنهجية.

ومن جانب ثان، فيما يبدو بصورة مستقلة عن البداية، أضحت فجأة المتطلبات المراد تحقيقها في مجالات مختلفة كثيرة للغاية. فطلبت عون اللسانية الخالصة المهيأة نسبياً لتلبية هذه الحاجة. ففي الحرب العالمية الثانية برزت الضرورة الملّحة لإيجاد مناهج سريعة ومجدية لتعليم الجنود

الأمريكيين اللغات الأجنبية. كذلك أدى تسارع تطوّر الاتصالات الدولية إلى ولادة اللسانية التطبيقية في تعليم اللغات الحيّة، وإلى ظهور الترجمة الفورية. كما تطلّب الانفجار السكاني – المدرسي، والحاجات المتزايدة للحقبة الصناعية إلى مجال المعلومات، إعادة النظر بالمناهج التربوية، بما فيها التعليم الأولي، حيث تبرز أكثر فأكثر ضرورة إجراء دراسات حول الظروف والطبيعة الحقيقة لتعلّم اللغة عند الطفل، وحول اضطرابات هذا التعلم، وحول المعوّقات المؤهّلة لإيقاف تعليمه المدرسي. كل هذه الأمور عجّلت ووجّهت على الأقل، إن لم تكن أوجدت، البحث في علم اللغة النفسي Psycholinguistique، كما جعلت مشكلات أخرى: مثل ازدواجية اللغة أو تعدديتها، تثاقف الشعوب النامية، أو أيضاً الصعوبات المتزايدة الملحوظة في تعايش الطبقات أو الفئات الاجتماعية لمجتمع ما، جعلت علم اللغة الاجتماعي Sociolinguistique علماً متميزاً إلى درجة عميقة عن علم اجتماع اللغة الذي كان قائماً في الزمن السابق.

وإذ يثبت هذا التطور الغزير حيوية اللسانية المعاصرة، فإنه لايسير دون مشكلات، ولعل أهمها حالياً هو التكوين العملي العميق للسانيين المؤهلين للقيام بدورهم في مواجهة هذه المشكلات كلها. ومنها أيضاً التشتت الحالي والذي من معالمه وجود مايزيد على مئة مجلة لسانية يصعب حصرها حتى لو استعنا ببنوك المعلومات، وكذلك عدد أطروحات الدكتوراه الكبير الذي يتخصص باللسانية.

٢- المادة والمناهج:

٢-١ تقديم:

حدد فيرديناند دو سوسور بصورة رائعة، منذ بداية القرن العشرين، الصعوبات التي تصطدم بها مقاربة Approche علمية لمعطيات اللغة Language (ولكل معطيات العلوم الإنسانية). وبينما «تعالج علوم أخرى موضوعات Sujets معروفة سابقاً، فنستطيع بالتالي أن نعتمد على وجهات نظر مختلفة»، نجد مجال اللغة بعيداً جداً عن أن تسبق فيه المادة objet المفهوم، بل سنقول إن المفهوم هو الذي يخلق المادة، وفي جانب آخر لاشيء يقول لنا مسبقاً إن واحدة من هذه الطرق التي نتفحص من خلالها الأمرَ موضوعَ البحث سابقةٌ أو متفوقةٌ على غيرها.

وهكذا، يضيف سوسور، نستطيع أن ندرس اللغة «من جوانب مختلفة في الوقت نفسه، لكن مادة اللسانية تظهر لنا عندئذٍ وكأنها كومة مضطربة من الأشياء الخليطة دون رابط بينها. وعندما ننهج هذا الطريق نفتح الباب على مجموعة من العلوم كعلم النفس، وعلم الإنسان Anthropologie، والقواعد المعيارية، وفقه اللغة Philologie... الخ».

ونضيف اليوم علم الأصوات Acoustique، الفيزيولوجيا، علم الأمراض العقلية والنفسية، التحليل النفسي، علم طب الأصوات Phoniatrie، طب الأطفال، علم الاجتماع، علم السلالات والفلسفة.

برؤية واحدة، من سوسور إلى تروبتسكوي Troubetzkoy، تمثّل

العمل النظري للسانية باكتشاف المنظور الخاص الذي تنظر اللغة من خلاله لتميّز نفسها عن غيرها من العلوم التي تعتمد اللغة مادة لها. حوالي عام ١٩٥٠ كان بإمكاننا التفكير ببداية إيضاح رؤية أكثر توحداً تجاه اللغة، مبنية على الفرضية التي بحسبها يكون وصف عمل اللسان Langue هو العملية الأولى واللسانية الخالصة التي تنظر الى اللغة أداة للاتصال Communication. وأخذ وصفُ لغةٍ ما يعني وصف البنى، وحدها فقط، التي لها وظيفة في عملية الاتصال.

— لكننا منذ عام ١٩٥٧ نشهد تفككاً لهذا الاتجاه التوحيدي. وكان مارتينيه قد سّجل من قبل، في مقالاته لعام ١٩٥٣ و١٩٥٤، مصدرَ الأخطارِ التي يمكنها أن تعود الى الظهور:

«الانعزالية القومية أو القارية»، (ويمكن للقارة الواحدة أن تتحول الى إقليمية ثقافية)، وهذه انعزالية مرتبطة بالتباعد وبالحواجز اللسانية أو السياسية أكثر بكثير من ارتباطها بالمواجهات السلوكية. ومن الأخطار أيضاً «انتشار واسع للمصطلحات الغزيرة». وعلينا أن نضيف اليها اليوم بعض التسويق الإعلاني للبحث الذي يبذل جهده لبيع نفسه كأي مادة سلعية أخرى، وكذلك كون اللسانية، وهي علم في أوج ازدهاره، تشهد ازدياداً في عدد باحثيها يقدّر بالآلاف، ويؤمن معظمهم أنه يقدم نظرية متميزة أو تعديلات جذرية على نظرية رائجة.

من أين تأتي هذه البابلية(*) Babelisme التي لاتسهّل على الأجنبي الدخول الى علوم اللغة والتي تخفي، تحت ستار الموضات العابرة، التيار الأصيل والعميق الذي يستمر: إنه الوصف التزامني والتعاقبي، البنيوي والوظيفي. إن ضحية نصف القرن هذا الذي يبدأ مع سوسور وينتهي مع تروبتسكوي ومن تبعهما، هي «فلسفة اللغة»، وهذا مايراه العالم اللساني Linguiste على الأقل. ورغم أن هذه الفلسفة ماتزال تعيش على المستوى الجامعي، فإن البحث الأدبي المجرّد حول اللغة محكوم عليه بالإدانة. وأبرزَ ظهورُ نوام تشومسكي Chomsky، الذي يبدو أنه أحيا هذا البحث، عيوب فلسفة اللغة والحاجةَ الى استبدالها بمبحث علمي لسانّي متماسك مسلم به، وهذا ماحلم به هيلمسليف Hyelmslev دون أن يستطيع تحقيقه: إنه فراغ قائم ينتظر التغطية.

في كل مايتعلق بتشريح اللغة، وهو حقل عمل فيه أطباء رائعون وحدهم ولوقت طويل وكانوا مجردين من أدوات لسانية مناسبة، أوُجِدت في البداية آراء مبكرة ومهمة لرومان جاكبسون Jakobson عام ١٩٥٠ الذي لم يرَ وجوداً لغير نوعين من الاضطرابات: اضطرابات المنظومة [النسق] (الانتقاء أو التشابه)، واضطرابات السلسلة (التكامل أو التجاور). لكن هذه الآراء المتبصِّرة كشفت بسرعة عن عدم ملاءمتها من وجهة نظر كل الباحثين في التشريح النفسي – العصبي للغة، وبقي المجال مفتوحاً

(*) البابلية: هذه إشارة الى أسطورة برج بابل الذي بني للتقرب من السماء. غار الإله من علوه، فأدخل تنوع اللغات وتعددها ليفرّق الأعراق البشرية [م].

أمام كل التقصيات المتواضعة الملموسة والمتأنية للعمل الذي أصبح منذ الآن موزعاً بين مجالات متعددة لعلماء النفس والأعصاب واللسانيات. ويرسم كل ذلك تشكيلاً بانورامياً لفترة انتقالية وربما تطورية.

عانت اللسانية قبل البنيوية Structuralisme من تراكم معطيات موصوفة بدقة، لكنها مشتتة: إنها معطيات تفتقر كثيراً الى نظرية تجمعها. ربما نجد أنفسنا اليوم، بعد فترة ازدهار البنيوية، في حالة تستمد معها الكثير من النظريات وجودها من معطيات غير كافية وتم النظر اليها من بعيد. وهذا أيضاً واحد من الأسباب التي ستكون فيها معرفة موحدة للغة أقل قرباً اليوم من المنال بخلاف مايبدو لنا، هذا إذا أردنا بالمعرفة الموحدة ماأراده سوسور، أي: إقامة ترتيب منطقي لوجهات النظر المتعلقة باللغة وللعلاقات الصحيحة الترابطية فيما بينها.

الشيء المؤكَّد، إذا لم نقل إنه المقبول من الجميع، هو أن وجهة النظر اللسانية، كما تعرّفها اللسانيات المعاصرة، هي حالياً نقطة الانطلاق الإلزامية لكل مقاربة غير بلاغية للغة.

٢-٢ بحثاً عن تعريف للغة:

يحيل مفهوم Concept اللغة الى تجربة ونشاط عميقين ومحسوسين تماماً، ويصنع كل امرئ لنفسه، في كل لحظة وبطريقة بدهية، مايبدو لمعظم الناس أنه استغناء عن أي تعريف آخر غير الذي يشكل مرجعاً Reference لهذا النشاط نفسه:

«اللغة، يقول أحد المتحدثين، هي ماأقوم به في هذه اللحظة عندما

أحدّث إليكم وتردّون عليّ».

ربما هذا الحدس Intuition المباشر، وهذا الاستبطان(*) Introspection الذي لايُتجنّبُ هما اللذلان يستطيعان تفسير مابدأ به الناس مؤخراً عندما أخذوا ينظرون الى استعمال لغتهم بصورة علمية حقيقية، أي، كما كتب بلومفيلد عام ١٩٣٣، بغياب أية أفكار مسبقة لقادم من المريخ إلى الأرض، سنجده يحاول تحديد سبب هذه الضجة (الأصوات) التي ينتجها سكان الأرض بواسطة فتحتهم الفموية Buccale. خلال ألفي عام كان للناس آراء حول اللغة، لكنها لم تتعدّ بالمحصلة كونها نتفاً Bribes متباينة وغير متناسقة وناقصة تدور حول علم اللغة.

كانت أهمية إيجاد تعريف Definition محدد، أي فعّال، للغة كبيرةً جداً على الدوام في كل زمن من التفكير Reflexion الذي قام به السابقون حول هذا الموضوع في الماضي. لكننا نستطيع الاعتقاد اليوم أن التعريف أو التفكير به رئيسي في مجال العلوم الإنسانية ذلك لأن اللسانية – إذا أمكننا القول – تتبنّى المسؤولية المعرفية Epistemologique عن هذه النقطة، وهي جزء منها من جهة أخرى. وبما أن كل العلوم المكوِّنةَ للانتروبولوجيا تلجأ الى اللسانيات وكأنها علم رائد (هذه كلمة كلود ليفي شتراوس عام ١٩٤٥) فقد أصبح من الضروري قطعاً أن نكون

(*) الاستبطان: هو عملية الذات في مراقبة الشعور ووصفه [م].

صارمين في تعيين حدود مفهوم اللغة ووصفه، وإلاّ فإننا سنشهد قيام خطر كبير يتمثل في تطبيق مبادئ Principes ومناهج Methodes لغوية – ويبدو أنها أثبتت صحتها في تحليل اللغة – على مواد نسميها – تقليدياً أو في المنطق الجديد – لغات (السينما، المسرح، الإيماء والعروض، الأدب نفسه، اللاشعور، الموضة، المطبخ، الأساطير، الفنون الجميلة..الخ) دون التأكد مقدماً من أن هذه المبادئ وهذه المناهج قابلة للتطبيق على هذه المواد، وأكثر من ذلك – وهذا أيضاً هدّام منهجياً – دون البحث بدقة ضمن أي مقياس وإلى أي درجة هي قابلة للتطبيق. إن البحث عن تعريفات للغة سيكون وحده مفيداً في الدراسة، وسنجد من خلاله نظرةَ حقبةٍ ما لظاهرة اللغة سواء من خلال الظروف الأيديولوجية التي ورثتها اللغة عن الماضي أو عبر تلك الظروف التي تكرسها بنفسها. وسنجد أيضاً الصراع غير المتكافئ والأبدي حسب الأزمنة وحسب العقول بين إرادة إدراكٍ أفضل لواقع اللغة الذي نلحظه، وبين الأفكار التي يُصنع منها الواقع أولياً والتي تقنّع هذا الواقع.

٢-٣ تعريفات القرن العشرين:

من المحتمل أن التعريفات التي نستطيع تقديمها اليوم للغة ليست أكثر خلواً من تأثير أيديولوجياتنا المعاصرة مما كانت عليه في القرن الثامن عشر. ومن المحتمل أيضاً أنه رغم هذا الأمر فقد اقترب تفكير الناس باللغة إلى معرفة أكثر تحديداً لخصوصيتها.

(قيل هذا الأمر للمفكرين الذين – بتخصصهم في دراسة التغيرات

التي تدخلها الأيديولوجية في تكوين المعرفة - ينسون دائماً تفحص تحليلهم الخاص نفسه ليروا إذا كان خاضعاً لتغير أيديولوجي، وربما يفعلون ذلك لينسوا فقط أن حياة الناس في كل لحظة تسمح لهم بإدراك هذه التغيرات، وهذا هو جوهر الممارسة العلمية نفسه).

إن تعريفات اللغة في بداية القرن العشرين مختلفة جداً عن سابقاتها، لكنها متقاربة جداً فيما بينها.

فعند سوسور (١٩١٦) تعني اللغة «نظاماً (منظومة، نسقاً) من الرموز المميّزة تدل على أفكار محددة».

ويتحدث سابير (١٩٢١) عن اللغة أولاً «كوسيلة للاتصال»، ويضيف حالاً: «عبر نظام من الرموز».

وهي بالنسبة إلى لالاند Lalande، في «المفردات التقنية والنقدية للفلسفة» ١٩٢٦: «في المعنى الأوسع، كل نظام للإشارات يستطيع أن يخدم كوسيلة للاتصال».

وبالنسبة إلى جيسبيرسين Jespersen في «الموسوعة البريطانية» ١٩٣٢ تكون اللغة «أي وسيلة للاتصال بين الكائنات الحية».

ويسجّل ماروزو Marouzeau، صاحب «عبارات المصطلحات اللسانية» (الطبعة الثالثة ١٩٥١) الاستخدام الشائع منذ الآن، فاللغة هي «كل نظام رموزٍ جدير بأن يكون وسيلة اتصال بين الأفراد».

إن الكلمة المفتاح هنا ليست مصطلح الاستعمال، بل كلمة «نظام».

ومنذ التعريف السوسوري، لم يضف العلماء سوى أشياء بسيطة، وهذا ماقاله كارناب Carnap الذي يعرّف اللغة بأنها «نظام من الرموز مع قواعد استخدامها».

أما موريس Morris (١٩٤٦) فيرى أن على اللغات «تشكيل منظومة من الرموز المترابطة والقابلة للتركيب ببعض الوجوه وليس بغيرها».

وعند ميّيه Meillet (١٩٥٦) اللغة عبارة عن «مجموعة من الرموز والقواعد الناظمة لاستخدامها»، ويمكننا أن نرى أنه لايقول شيئاً إضافياً على ماقاله كارناب، وأن «قواعد استخدامها» ليست إلا شرحاً لما قاله سوسور في تعبير «نظام».

في الواقع، إن الإضافة الأكثر أهمية على التعريف السوسوري هي إدخال كلمة اتصال Communication التي حلّت محل «التعبير عن الفكر» وأحدث ثورة منهجية غير متوقعة. وقد قاد تحليل الطريقة التي تعبر بها اللغة عن الفكر الى الاستبطان، والى الأسلوبية، والى المنطق. بالمقابل يؤدي الحديث عن الاتصال الى الملاحظة العلمية لسلوك الموصِل Communicateur، وكذلك الى ملاحظة استخدام نظام الاتصال.

٣- اللغة والاتصال:

من المعتقد أن هذه التعريفات - رغم ظاهرها الذي يبدو أكثر فأكثر تقنياً ودقيقاً - تبقى بغرابة مرهونة بأيديولوجية يمكننا تسميتها -

من هذا الجانب – فلسفة الربع الأول للقرن العشرين. وهي الحقبة التي تكوّنت فيها، قبل أن توضع النقاط نهائياً على نظرية اللغة كنظام للاتصال، نظرية تشرح بصيغ أخرى قدرة الانسان على ابتكار أنظمة اتصال: إنها نظرية الوظيفة الرمزية Symbolique أي نظرية قدرة الناس على استعمال بعض الظواهر Phenomenes المدركة حسياً (الدوال Signifiants) من أجل استدعاء، مقابلة، الإشارة إلى، الدلالة على ظواهر أخرى غير ملحوظة هنا والآن (المدلولات Signifies).

تدين هذه النظرية بصورة كبيرة لسوسور، وإن لم يبتكرها كلّها وحده، فهو أول من أصرّ على ضرورة إدخال اللسانيات – التي ليست إلا جزءاً من هذه النظرية – إلى المجال الواسع لمجموع أنظمة الإشارة كلها (الكتابة، أبجدية الطرشان والخرسان، الطقوس الرمزية، اللباقة، الرموز العسكرية، الموضة، الإشارات البحرية.. الخ)، وهذا المجال هو مايسميه بالدلالية (العلامية، السيميائية) Semiologie. وبتعريف اللغة بأنها كل نظام من الرموز (أو الاتصال)، يعيد التفكير السوسوري الخلط بين اللغة بحصر المعنى (أنظمة الاتصال اللسانية) وبين الدلالية (أنظمة الاتصال غير لسانية).

فوق الاستخدام لمختلف الأعضاء (أي القدرة على نطق هذا الصوت أو ذاك وتتبع هذه الرموز أو تلك) توجد خاصية أكثر شمولية (أي استحضار رموز لغة نظامية بأداة ما) هي التي تحكم الرموز وستمثلها الخاصية اللسانية بامتياز. وهذه هي الوظيفة الرمزية التي لم يصدر عنها

تعريفات للغة قبل عام ١٩٥٠ تقريباً.

٣-١ هل كل إشارة لغة؟

معظم الكتاب المذكورين آنفاً لايخلط بالتأكيد بين نظام الإشارات Systeme d`indices ونظام الرموز (العلامات) Systeme de signes. فالإشارة هي شيء يمكن ملاحظته، ويدل الملاحظ على شيء آخر غير ملحوظ الآن: فالشكل واللون والارتفاع والاتجاه للغيوم تكوّن إشارة عن الطقس الذي سيكون. أما العلامات (الرموز) فهي فئة من الإشارات تُنتج اصطناعياً من قبل مُرسِل Emetteur ليوصل إلى مستقبل Recepteur حالاتٍ غير ملموسة، هي مدلولات العبارات التي يبثها.

لاتشكل آثار أقدامْ طريدة مذعورة على الأرض – بالنسبة للباحث الدلالي – علامات، بل إشارات، تماماً مثل الحرارة التي لم ينتجها الجسم للاتصال مع الطبيب. كذلك، وحتى إشعار آخر، فإن أحلام المريض هي إشارات يقوم الطبيب النفسي بتفسيرها معتمداً التحليل العلمي المختلف جداً عن التحليل اللغوي لأن المريض لم ينتجها للاتصال مع الطبيب ولا مع نفسه أيضاً (إلى أن يثبت العلم العكس). من خلال هذه الأمثلة ندرك الحد الفاصل بين الإشارة والعلامة (الرمز)، بالمعنى العلمي للتعبيرين، الذي كان غائباً فيما مضى بذريعة ترادفهما. ولهذا استطاع لغوي كبير، هو جوليو بيرتوني Bertoni، القول عام (١٩٣٨) أن الضحك لغة، وأن الدموع لغة دون أن يحاول، مع ذلك، تطبيق مناهج التحليل اللغوي عليها في معالجة لسانية. وقبله ذهب جون دوي Dewey إلى أبعد من ذلك حين

رأى أن كل أثر يتركه الناس هو رمز، وكل عمل انتروبولوجي يتحول الى لغة. ولايعني بذلك فقط المآثر والعادات والطقوس (التي ربما تكون أنظمة اتصال مختلفة عن اللغات)، بل يعني أيضاً الصروح الخالدة والابداعات الفنية الصناعية التي من المؤكد أن الحضارات لم تنتجها، أولاً وأساساً، من أجل التواصل مع علماء الجمال والمعماريين الذين ربما يقومون يوماً ما بنبشها وتفسيرها من الخارج.

هناك فرع خاص من السيميائية الحديثة يجازف بالخلط، تحت اسم «سيميائية الدلالة»، بين تفسير الإشارات وقراءة العلامات التي هي بالمعنى الدقيق للكلمة «سيميائية الاتصال (التواصل)» والتي تعاني من مشكلة أولية تتمثل بإقامة الدليل العلمي على وجود نية الاتصال بالشكل الواضح. يكمن الخطر المعرفي هنا في التسليم مقدماً بأن النماذج المتداولة والمختَبَرة في الاتصال – وهي في معظم الأحيان لغوية – مطبقة عملياً في مجالات لاوجود فيها للاتصال، أو أننا لم نتأكد بعد من وجوده أو عدمه. وفي حال الوجود لانعرف طبيعة الاتصال: هل هي من النموذج اللغوي.

٣-٢ هل كل رمز لغة؟

يخلق الاستمرار بتعريف اللغة كنظام رموز (علامات) ذي قواعد استخدام سوءَ فهم مستمر، حتى عندما نقصي جانباً الخلط بين إشارة ورمز. إذا كان، كما كتب فيندرس Vendryes في مجلة «اللغة» عام ١٩٢٠، بمقدور «كل الأعضاء أن تسهم في خلق اللغة»، وكما يقول بيرتوني «الإيماء لغة»، إذا كان ذلك فلماذا لاتدرس اللسانيات، التي هي

الدراسة العلمية للغة، كلَّ هذه اللغات؟ وإذا كانت تدرسها فأين تقع الحدود الفاصلة للعلامية؟

يوافق جيسبيرسن على وجود «وسائل اتصال حيوانية»، ومع أنه يفرّ باختلافها عن اللغات الإنسانية، فإنه لايقدم أي ميزة علمية تخدم التحليل الخاص بمختلف «أنظمة الرموز»، لكنه يعلن فقط أن «اللغة في شكلها المتطوّر خاصية إنسانية بالتأكيد، وربما عُدَّت العلامة الأهم للإنسانية».

عندما تطرّق موريس عام ١٩٤٦ للمشكلة نفسها لم يقدم طرحاً أفضل. ويختصر كولان شيري Cherry عام (١٩٥٧) المسألة بالقول: «الإنسان هو الوحيد الذي يمتلك لغة»، والحيوانات لاتملك لغة لأنها لاتملك «نظام تفكير منظم». وهذا ماأعلنه بوفون Buffon قبل قرنين من الزمن: «لأن اللغة تفترض وجود خلفية تفكير، يمكننا القول إن الحيوانات لا لغة لديها».

إذا كان الجميع مؤمنين بأن اللغة الإنسانية تنتج أنظمة علامات، مختلفة بالتأكيد عن سواها، وتكفي لتميز الجنس البشري عن الأنواع الحيوانية الأخرى، فإنه من الواجب حتماً تقديم الخصائص العلمية لهذا التميز.

٤- اللسانيات العامة:

٤-١ الروّاد:

إن أول من أراد إضفاء صفة العلمية على اللسانيات هو الأمريكي ويتني (١٨٢٧-١٨٩٤)، ولعل أهم طروحاته - وقد كانت ثورية في حينها - هي أن اللغة ليست واقعة بيولوجية عائدة الى العلوم الطبيعية، بل هي واقعة اجتماعية، وأنها ليست ملكة ذهنية أولاً بل نتاج مؤسسة الابتكار الإنساني: تولد اللغة من الاتصال وفيه، وهي أداته بالمعنى الدقيق. وتتمثل المهمة الأولى في وصف استخدام هذه الأداة. يسجل ويتني بوضوح أن اللغة فعل علامات، وهذه العلامات اعتباطية تنتظم في بنى وتشكل منظومة. وكان مهتماً بدراسة تعلّم اللغة عند الطفل كمصدر معلومات لاستخدام المنظومة:

«لن نقوم بعمل أكثر بداثية وهو في الوقت ذاته أكثر جوهرية».

قُرِئ ويتني وانتشرت أفكاره بسرعة، لكن تأثيره العميق انحصر في اللسانيات الأنغلو-ساكسونية، ولم يُفهم جيداً في أوروبا إلا من قبل سوسور الذي كان المتابع النشيط لأفكاره.

ويستحق بيرس Peirce (١٨٣٩-١٩١٤) أن يوضع الى جانب ويتني، مع أنه فيلسوف «الذرائعية» Pragmaticisme وعالم منطق مشهور بنظريته عن العلامات التي تُعَدّ أكثر تعقيداً وكمالاً من نظرية سوسور الذي من المحتمل أنه كان يجهله. في الواقع، اتسم تأثير بيرس بالبطء الشديد، ولم يتم إلا عن طريق قناة المنطق الأنغلو-ساكسوني ثم الأوروبي، فاكتشفه علماء المنطق بكل أعماله عام ١٩٣٢ وعلماء اللسانيات بعد عام ١٩٥٠.

كان السويسري انطون مارتي Marty (١٨٤٧-١٩١٤) يدرّس في براغ لمدة ثلاثة وثلاثين عاماً، وكان معاصراً لسوسور لكن لايبدو أن هذا الأخير قد عرفه.

يمزج مارتي في تدريسه لفلسفة اللغة بين ذكريات من فلسفة الـ «بور - رويال» Port - Royal وبين فلسفة هومبول Humboldt القديمتين. وتترافق هذه الفلسفة مع وعي واضح لما سيسميه سوسور اتجاهاً تزامنياً واتجاهاً تطورياً مع التأكيد على أهمية الأول.

وإذا كان مارتي يعد من الجيل الثاني للرواد، فإن الأمر مختلف بالنسبة الى الدانماركي اتوجيسبيرسين (١٨٦٠-١٩٤٣) الذي ماتزال مقالته العظيمة عن اللغة عام (١٩٢٢) حدثاً مهماً والعودة اليها ليست إضاعة للوقت أبداً. ويبقى ماقاله عن لغة الطفل جديراً بالتقدير، وكذلك تحليلاته للتراكيب - مثل الوصل والمسنود - التي لم تنته بعد حسناتها المتميزة.

ربما يبدو غريباً أن نضع انطوان مييه Meillet (١٨٦٦-١٩٣٦)، وهو من تلامذة سوسور وأسهم طوال نصف قرن من الزمن في صنع اللسانيين الفرنسيين، بين الرواد في علم اللسانيات المعاصر. والسبب في ذلك هو أن مفهوم سوسور للنسق شكّل محور تفكيره. في الواقع، بقي

مييه مرتبطاً بعمق بالصيغة المقارنية وباللسانيات التاريخية التي يعد مييه واحداً من أبرز ممثليها، وهو مخالف عملياً للتفريق المنهجي الأساسي بين التزامني والتطوري، ولايتوافق مع فكر كتاب «المحاضرات» لسوسور، ويقلل من أهميته. اللسانيات العامة التي يرسمها ويراها مستمدة من اميل دوركهايم: إنها تبحث بوجه أساسي عن «الدوافع الاجتماعية للوقائع اللغوية»، وهو بذلك لايصل إلاّ الى اللسانيات الاجتماعية المعاصرة.

سنصنّف غوستاف غييوم Guillaum (المتوفى عام ١٩٦٠) بين الرواد أيضاً، فقد كان، قبل ازدهار اللسانية البنيوية في فرنسا، رائد نوع من البنيوية القائمة على تصورات إمّا ميتافيزيقية وإما فلسفية ناتجة بالمحصلة عن استبطان الباحث اللساني وعن تلاقحها مع علم نفس العصر. بصرف النظر عن التقدير الكبير الذي يكنه مييه لغييوم بحيث يرى فيه (أكثر مما يرى في سوسور) المؤسِّس لـ «قواعد عامة» قادمة، وبصرف النظر أيضاً عن مجموعة أصدقائه الذين يعظّمون ذكراه ويبالغون أحياناً في امتداحه، بصرف النظر عن كل ماسبق لايبدو أن غييوم يضيف على ماسبق للسانيات الفرنسية أن حققته.

٤-٢ أهم النظريات بين (١٩٠٠-١٩٥٠)

(لايُشكّ إطلاقاً في أهمية سوسور (١٨٥٧-١٩١٣) ودوره المجدد للدراسات اللسانية، وتبرز إسهاماته في: التمييز بين السيميائية واللسانية، بين التزامن والتعاقب، ثم مفهوم «المنظومة» الذي أصبح واقعياً، ونظرية الرمز، ونظرية اللغة مقابل الكلام) وكل هذا قابل للنقاش والتعديل والفرز

وربما للتعقيد أحياناً من قبل لاحقيه، مع ذلك تبقى اسهاماته نقطة انطلاق ثورة جذرية للتقدم الذي أُحرز ونعرفه اليوم.

إدوارد سابير (١٨٨٤-١٩٣٩)، امريكي من أصل ألماني، هو المتابع لتراث أمريكي خاص قام بتقديمه سابقاً بويل Powell في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم الانتروبولوجي الكبير فرانس بواس Boas (١٨٥٨-١٩٤٢). يهتم هذا التراث بالوصف الخالص للغات الأمريكية في الولايات المتحدة وهي لغات دون تاريخ. قاد الموقف الوصفي Descriptive Attitude وغير المقارن سابير إلى عرض للغة حسب النموذج الويتني وعلى قاعدته، إلا أنه يطوّره بإدراكٍ واضح لوظائف اللغة (المعرفة، الانفعال، الإرادة، الجمال) وبتمييز، على المستوى ذاته من الوضوح، بين الصيغة اللغوية والوظيفة اللغوية، فيقدم الأولى على الثانية. أوصلته هذه المنهجية Methodologie إلى صياغة شخصية «للواقع النفسي» لمفهوم الفونيم كنموذج صوتي، وهي صياغة رائدة (سابق بذلك لتروبتسكوي الذي يتابع الجهود في هذا المجال) وربما مستقلة عن عمل سوسور.

بعد سوسور بدأ الاندفاع نحو إيجاد تيار Courant بنيوي في اللسانية مصدره أعمال تروبتسكوي (١٨٩٠-١٩٣٨) التي قُدّمت في البداية بصيغة طروحات جماعية - ذلك بالتعاون النشط لرومان جاكبسون مع لسانيين تشيك كانوا يشكلون حلقة براغ - إلى المؤتمر اللساني العالمي الأول (لاهاي ١٩٢٨)، وإلى المؤتمر العالمي الأول للسلافيين (براغ

١٩٢٩)، وإلى المؤتمر العالمي الأول للعلوم الصوتية Phonetique (امستردام ١٩٣٢). تكمن مساهمته النظرية الجوهرية في تعريفه للفونيم لا على أساس واقعة فيزيائية (مجموعة خصائص صوت) أو نفسية («الاحساس اللغوي» للمتحدث)، وإنما قبل أي شيء على أساس «المفهوم الوظيفي»، أي مجموعة الخصائص المتصلة به، وهي وحدها التي تميز صوتاً في لغة ما كأصغر وحدة مميزة تنفرد، ضمن هذا المعنى، بخصائص عن مجموع الوحدات الصغرى المميَّزة (أي الفونيمات) في هذه اللغة. وينتج عن ذلك إيجاد علم الأصوات الكلامية Phonologie الذي يُعرف كـ «علم الأصوات الوظيفي والبنيوي».

يقدم ليونارد بلومفيلد (١٨٨٧-١٩٤٩)، وهو متخصص بالأمريكية والسنسكريتية، عام (١٩٣٣) معالجة مهمة للسانيات العامة قائمة بمجملها على بسيكولوجية سلوكية مركّزة على «مايمكن ملاحظته» في اللغة والأحوال التي تُستخدم فيها. إنه يستبعد مايعدُّه مشوّهاً «للعقلانية» ويرفض أي لجوء إلى تصورات غير لسانية مثل الروح، الوعي، الفكرة، المفهوم، الصورة الذهنية.. الخ. ويؤسس على هذه المبادئ «فونيماتية» Phonemique تشمل تقريباً التحليل نفسه للأفعال ذاتها الذي يقوم به علم أصوات تروُبتسكوي رغم مابينهما من اختلاف. والحقيقة أن تركيبه البنيوي كان في زمانه، ومايزال إلى اليوم، جذرياً بالاهتمام مع أنه يحمل بعض الصعوبة بسبب أفكاره الجديدة في المنطق.

آخر أكبر لسانيي النصف الأول من هذا القرن هو لوي هيلمسليف

(١٨٩٩-١٩٦٥) وقد حاول في «مقدمات في نظرية اللغة» عام (١٩٤٣) صياغة القواعد الجبرية لمسلّمة لغوية: إنها رياضيات لغوية Glossematique.

في الواقع، يتطلب الأمر هنا تعريف المبادئ المعرفية لعلم اللسانية وتقديم مجموعة تعاريف دقيقة تصل إلى مئة وستة تعريفات. لم تتجاوز النظرية حتى الآن مرحلة المقدمات، ولم تقدم أي وصف واضح لاختبار مصداقيتها، ويكمن خطرها، على عكس ماأراده هيلمسليف الذي رأى فيها كلاً متكاملاً، في عرض أجزاء من تصورات أو عناصر مصطلحات مأخوذة من غيرها بصورة شكلية. مع ذلك، فإن فضله الكبير يتجسد في الإشارة إلى الصيغة اللاحقة للموضوعات التي على علم اللسانيات أن يهتم بها.

٤-٣ بعد عام ١٩٥٠:

دون تجاهل للمدرسة الانكليزية، ممثلة بأسماء هنري سويت Sweet ودانيل جونس Jones وجون فيرث Firth، يمكننا أن نذكر أهم اللسانيين الذين كانوا ومايزالون متألقين في النصف/لثاني من القرن العشرين، وهم رومان جاكبسون، أندريه مارتينيه، نوام تشومسكي.

ولد جاكبسون عام ١٨٩٦، وهو دون شك الأكثر صعوبة في التحديد، تعاون بين الأعوام (١٩٢٠-١٩٣٨) مع تروبتسكوي في موضوع تشكيل طروحات مدرسة براغ ونشرها، ووجب الانتظار حتى نشر مراسلاتهما الكاملة لمعرفة مشاركة كل منهما في هذه المغامرة

العلمية. بعد موت تروبتسكوي استمرت أعمال جاكبسون في السويد ثم في الولايات المتحدة. ومايدهش منذ ذاك التاريخ هو الغنى الغزير للآراء الجديدة، وجدّة الطروحات، والنشاط الرائد وترويض الأذهان. لكن عمل جاكبسون، مثل عمل بينفينيست Benveniste في اللسانيات العامة، يتطور من خلال الأجزاء الكبيرة دون أن يشكل أبداً هيكل نظرية متكاملة أو أن يُجمع في عرض منظَّم مماثل لما نراه عند سوسور أو سابير أو بلومفيلد أو تروبتسكوي أو هيلمسليف. مع ذلك فقد أثّر في وقت من الأوقات في الجميع وظهر ذلك في آثارهم.

يمثل مارتينيه Martinet (المولود عام ١٩٠٨) دون شك المتابع الأكثر صرامة علمية والامتداد الى كل المجالات اللغوية لمبادئ تروبتسكوي ومناهجه بعد التراث السوسوري. إنه واقعي قبل أي شيء، ولايبحث عن فرض نماذج نظرية خارجية على تحليل الأمور اللغوية. المبدأ الأساسي في تحليله هو مفهوم الوظيفة كخاصية اكتشاف لما هو ملائم في التواصل اللغوي. ولهذا أصبح واحداً من البارزين (مع أفراد المدرسة الأمريكية مثل سابير وبلو مفيلد) – هذا إذا لم يكن الأبرز – بين علماء الأصوات والمعدِّين الأحياء لعلماء الأصوات. يحاول بعضهم حصره أحياناً في علم الأصوات، لكن من الواجب التنبيه على أنه الوحيد بين كبار اللسانيين المعاصرين الذي وفّق بين لسانيات تزامنية مزدهرة وأخرى تطورية بنيوية مهملة قليلاً. وتعد نظريته التركيبية واحدة من النظريات القليلة التي تقدم نفسها حالياً لتصف وتحلل الوظيفة الفعلية للقول قبل

صياغته. وهي تتابع وتطور وتصحح النظرية الأكثر غنى للجيل السابق أي نظرية سابير.

أما نوام تشومسكي (المولود عام ١٩٢٨) فهو دون منازع اللساني الأبرز والأكثر طموحاً وكمالاً بين اللسانيين المتصدّين للمحاولات النظرية المعاصرة في مجال اللسانيات العامة. وقد انتشر تفكيره بسرعة لافتة للانتباه بحيث أصبح من الصعب الإحاطة به. السائد عنه أنه يقدم مجموعة من الفرضيات المنطقية – الرياضية قابلة للتعديل الدائم أكثر مما يعرض نظرية نهائية خالصة.

الفكرة الرئيسية عنده هي أننا نستطيع وصف التكوين الدماغي وتعلم اللغة واستخدامها انطلاقاً من مسلمة تقول إن الأقوال اللغوية مؤسسة على مجموعة صغيرة من النماذج الذهنية (المجردة) الغريزية للجمل (الجمل الأساسية) التي يستطيع أي متحدث بأي لغة أن يستخلص منها عدداً غير متناه من الجمل الصحيحة بوسيلة قواعد التحويل (بالحذف، بالإضافة، بالتبديل، بالقلب، بالترصيع). هذا الطرح شائع ومثير للجدل حالياً في آن معاً.

منذ عام ١٩٧٢ تغير موقف تشومسكي بدرجة كبيرة في اتجاه توزع التيارات وتفرق الشخصيات. في المجال النظري – وهو الأكثر تطوراً – اضطر، بسبب الانتقاد الموجه إليه، وهو يستحقه لأنه متعصب للأنغلو-ساكسونية رغم محاولاته الامتداد الى لغات أخرى، للعدول مرغماً عن فصله الجذري بين التركيب Syntaxe والدلالة مما يقوض

الملحمة في مفهوم «البنية العميقة». بعض تلامذته أراد التأكيد على وجود البنى العميقة التي تغيّب الحدود الفاصلة بين تحليل اللغة وتحليل الفكر إذا كان هذا الأخير ممكناً في هذا الإطار. بعضهم الآخر ذهب الى تقديم «السيميائية التوليدية» المستندة الى أداة هشّة جداً ودون خصائص لغوية لتفسير المقاطع وشرحها.